السنة الثامنة من النبوة

وفيها كتبت قريش الصحيفة بينها وبين بني هاشم.

واختلفوا في سببه على أقوال:

أحدها: أنه لما أسلم حمزة وعمر ﷺ شق ذلك على كفار قريش، واتفقوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه ويتعاقدون، أنهم لا ينكحون إلى بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعونهم ولا يكلمونهم.

والثاني: أنه لما بلغ قريشاً فعل النجاشي بجعفر وأصحابه، وإكرامه إياهم، وردّه عَمْراً وصاحبه خائِبَيْنِ، شق ذلك عليهم، وكتبوا الصحيفة.

والثالث: أنه لما فَشا الإسلام في القبائل، كتبوا الصحيفة، والذي كتبها منصور بن عكرمة بن [عامر بن] هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فشلَّت يده، وقيل: كتبها بغيض ابن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار[1] فيبست يده حين كتبها، وبقيت أياماً عند أم الجُلاسِ خالة أبي جهل، وهي التي يقال لها: الحنظلية، وقيل: بل كانت عند أسماء بنت مُخَرِّبة أم أبي جهل، ثم أخذها المطعم بن عدي فأقامت عنده أياماً، ثم علقوها في الكعبة، ولما رأت بنو هاشم ذلك انحازوا إلى الشِّعب المعروف بِشِعْب بني هاشم بمكة، ودخل معهم بنو المطلب، ولم يتخلف عنهم سوى أبي لهب، فأقاموا إلى السنة العاشرة من النبوة[2].

قال ابن عباس ﷺ: حصرونا في الشِّعب، وقطعوا عنا الميرةَ والمادة حتى كان صبياننا يتضاغَوْن جوعاً، يُسْمَعُ ذلك من وراء الشعب حتى مات منا قوم.

وحكى الطبري: أن أبا جهل بن هشام لقي حكيمَ بن حزام ومعه غلام يحمل حِنْطةَ، وما كان يُحْمل إليهم شيءٌ إلا سرّاً من قريش، وكان حكيم يريد بالطعام عمته

(١) وهو كذلك في «نسب قريش» ص٢٥٤ ، و«جمهرة النسب» ص٦٦ .

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ٢/ ٣ ، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٧٧ .

خديجة رضي الله عنها وهي عند رسول الله ﷺ بالشِّعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟! والله لا أبرح حتى أفضحك بمكة. فجاء أبو البَخْتَري فقال له: خل عن هذا الرجل، فأبى أبو جهل. فضربه أبو البختري بِلَحْيِ جمل فشج أبا جهل، ووطئه وطئاً شديداً، ورسول الله ﷺ يرى ذلك، ويدعو إلى الله سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً، والوحي يأتيه من الله ولم ينقطع عنه في الشعب.

وفيها: قُبَيْلَ دخولهم الشِّعب وصل الخبر بغلبة فارس على الروم.

قال علماء السير: عزم كسرى على غزو الروم، فاستشار امرأة عاقلة من فارس كانت تلد الملوك، فقالت: هذا فَرُّخان، أحذر من صقر، وأروغ من ثعلب، وأنفذ من سنان، وهذا أخوه شهريار أحلم أهل زمانه، فقال: ما أريد إلا الحلم. فقدَّم شهريار على الجيوش، فأوغل في بلاد الروم قتلاً وأسراً، وهدم الحصون، وقطع الأشجار، وعاد إلى الشام، فأرسل إليه قيصر رجلاً من بطارقته يقال له: يُحنَّس، فالتقيا بأَذْرِعات وبصرى، وهي أَدْنى أرض الشام إلى أرض العرب فغلبت فارسُ الروم، وبلغ الخبر إلى كسرى، ثم إلى مكة فشقَّ ذلك على النبي ﷺ والصحابة، وكان يكره ظهور الفرس، لأنهم مجوس لا كتاب لهم، والروم لهم كتاب. وفرح كفار قريش بذلك، لأنَّهم عبدة الأوثان مثل الفرس، وقالوا للمسلمين: قد ظهر إخواننا، فلو قاتلناكم لظهرنا عليكم. فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾[الروم: ١-٣] الآيات، فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفار وهو يقول لهم: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، لا تفرحوا فوالله لتظهرَنَّ الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أُبيُّ بن خَلَف الجُمَحي، فقال: كذبت يا أبا الفضيل. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أنت أكذب يا عدو الله. فقال: اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُك عليه ـ والمناحبة: المراهنة ـ، على عشر قلائصَ منِّي وعشر منك، فإن ظهرت الروم على فارس، غَرِمت. ففعلا ذلك، وجعلا الرهن ثلاث سنين، وذلك قبل تحريم القمار.

وأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ما هَكذا ذُكِرَتْ، إنَّما البِضْعُ: ما بينَ الثَّلاثِ إلى التِّسعِ. فَزايِدْه في الخَطر، ومادَّه في الأجَل» فخرج أبو بكر رضي الله عنه فلقي أُبيًّا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا. فقال: تعال أزايدك وأمادَّك في

الأجل فنجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين، فقال: قد فعلت. فلما خشي أُبيٌّ أن يخرج أبو بكر ﷺ من مكة، فقال: أقم لي كفيلاً. فكفله ابنه عبد الله ـ ﷺ ـ، فلما أراد أُبي أن يخرج إلى أُحُد، أتاه عبدالله بن أبي بكر ـ ﷺ ـ، فقال له: أقم لي كفيلاً. فأعطاه، ثم رجع أُبي مجروحاً، فمات من جراحته بمكة. وكان رسول الله ﷺ جرحه، ثم ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس تسع سنين من مناحبتهما، وهذا قول عامة المفسرين[١].

وقال أبو سعيد الخدري: إنما ظهرت الروم على فارس يوم بدر[٢].

وقال الشعبي: إنما كان صاحب قمار الكفار بمكة أبي بن خلف، وصاحب قمار المسلمين أبو بكر ﷺ، وذلك قبل تحريم القمار، فلم تمض تلك المدة حتى غلبت الرومُ فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وعَمَروا روميَّةَ، فقمر أبو بكر ﷺ أُبيًّا، وأخذ مال الخطر من ورثة أُبيٍّ، فجاء به رسولَ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّق بهِ»[٣].

ذكر السبب في ظهور الروم على فارس:

ذكر علماء السير: أن شَهريار لما هزم الروم على أذرعات، سار خلفهم فأناخ على خليج القُسطنطينية، وكان أخوه فَرُّخان في جملة الجيش، فسكر يوماً، فقال: رأيت في المنام كأني جالس على سرير كسرى. وبلغ كسرى، فكتب إلى شهريار: ابعث إليَّ رأس فرخان. فكتم ذلك على أخيه، وكتب إلى كسرى: إذا قتلت فرخان، فمن للنكاية في العدو، ومن للحرب. فكتب إليه كسرى: إن في رجال فارس خَلَفاً عنه، فعجِّلْ عليَّ برأسه. فكتب إليه شهريار: إنك لا تجد مثله، فلا تعجل على قتله. فغضب كسرى ولم يجبه، وكتب كتاباً إلى الجيش: إني قد نزعت عنكم شهريار، ووليت عليكم فرخان، ثم دفع إلى الرسول صحيفة صغيرة إلى فرخان يأمره بقتل أخيه شهريار، وقال: إذا

(١) ساق القصة ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ، وانظر «تاريخ الطبري» ٢/ ١٨٥ ، و«دلائل النبوة» ٢/ ٣٣٠ ، و«المنتظم» ٢/ ٣١٩ و ٣٨٧ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٣٥).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٤٨٠ ، وعزاه إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه.

جلس فرخان على السرير، وأطاعه الجند، فناوله إياها. فلما قرأ كتاب كسرى على الجيش، قال شهريار: سمعاً وطاعة، ونزل عن السرير، وسلم الأمر إلى فرخان، فدفع إليه الرسول الصحيفة، فقال: علي بشهريار، فجاء فأمر بقتله. فقال له: يا أخي، لا تعجل، ودعا بسفطٍ وأخرج منه ثلاث صحائف من كسرى إليه بقتل فرخان، ثم قال: قد راجعت فيك مراراً ولم أقتلك، وأردت أن تقتلني بكتاب واحد. فنزل فرخان من السرير، وسلم الملك إليه.

وكتب شهريار إلى قيصر: إن لي حاجة لا تُقِلُّها البُرُدُ، ولا تحملها الصحف، فالقني في خمسين فارساً. وخرج شهريار في خمسين فارساً وضُرِبَت لهما قُبَّةٌ، فدخلاها وبينهما تَرْجُمان، فقال شهريار: إن الذي أخرب مدائنك، وسبى رعيتك، ودوخ بلادك، أنا وأخي، وإن الخبيث كسرى حسدنا، وأغرى بيننا، وعرَّفه الخبر، ونحن نقاتله معك، ونملِّكُك داره وملكه، فَسِرْ معنا. فقال: أصبتما، ثم أشار كل واحد منهما إلى صاحبه بأن السر متى جاوز اثنين شاع.

فقتلا التَّرْجُمان، وساروا جميعاً نحو المدائن يخربون أرض فارس ويقتلون. ومات كسرى، وأُديلت الروم على فارس، وجاء الخبر يوم الحديبية إلى رسول الله ﷺ، ففرح ومن معه، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ الآيات[1].

وقرأ أبو عمرو، وأبو سعيد الخدري، والحسن، وعيسى بن عمر: «غَلَبَتِ الروم» بفتح الغَيْن، و«سَيَغْلُبون» بضم اللام[2] وفتح الياء.

قالوا: نزلت هذه الآية حين أخبر الله نبيه ﷺ عن غلبة الروم فارسَ، وأن المسلمين يغلبونهم في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة، أخذ المسلمون في التأهب لجهاد الروم، وكان أبو الدرداء يقول: سيأتي قوم يقرأون: «غَلَبت الروم» بالفتح، وإنما هي: ﴿غُلِبَتِ﴾ بالضم، ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ يعني من قبل دولة الروم على فارس، ومن بعدها[3].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ٢/ ١٨٢ فما بعدها، و«المنتظم» ٢/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) في (ك): «الباء»، وانظر تفسير الطبري ١٨/ ٤٤٦، والبحر المحيط ٧/ ١٦١.

(٣) جاء بعدها في (خ): «يعني من قبل ذلك».

قال يحيى بن أبي عمرو السِّيباني، قال رسول الله ﷺ: «فارسُ نَطْحةٌ أو نَطْحتَان، ثم لا فارسَ بعدَها أَبَداً، والرُّومُ ذاتُ القرونِ، كلَّما ذَهَب قَرْن خَلَفَه قَرْن هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إلى آخر الأبد»[١].

وفيها: قدم ضِماد الأَزْدي مكة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قدم ضماد مكة، وكان من أَزْدِ شَنوءة، وكان يرقي من الريح، فسمع سفهاء قريش يقولون: إن محمداً لمجنون، فقال: لو أني لقيت هذا الرجل فلعل الله أن يشفيه على يدي، قال: فلقيته. فقلت: يا محمد، إني أرقي من الريح والله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله نَحمدُه ونَستَعينُه، مَن يَهْدي اللهُ فَلا مُضِلَّ لَه، ومَن يُضلِلْ فَلا هادِيَ لَه، وأَشْهدُ أنْ لا إلَه إلَّا اللهُ وأنَّ محمداً عبدُه ورسُوله، أما بعدُ». فقال له ضِماد: أعد علي ما قلت ـ أو أعد علي كلماتك هؤلاء ـ فأعادهن عليه ثلاثاً. فقال ضماد: لقد سمعت كلام الكهان والسحرة والشعراء فما سمعت مثل كلماتك هذه، لقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «وعَلى قَومِكَ»؟ فقال: وعلى قومي. فبعث رسول الله ﷺ بعد ذلك سرية، فمرت بقوم ضِماد، فقال صاحب الجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل: أصبت منهم إداوة. فقال: اردُدْها، فإن هؤلاء قوم ضِماد[٢].

ولما دخلت السنة التاسعة من النبوة، مرض أبو طالب وهم في الشعب.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ٥/٢٩٨، ونعيم بن حماد في «الفتن»(١٣٤٦)، وهو مرسل بين السيباني والنبي ﷺ عبدالله بن محيريز.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).